جائحة الكورونا : إعادة النظر في التباعد الاجتماعي

د. نيكولاس لونج - (كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية -قسم الانثروبولوجيا)

ترجمة :

ملخص

تقدم الورقة نقدًا أنثروبولوجيًا لما أُصطلح عليه مؤخرًا استراتيجية «التباعد الاجتماعي» للحدّ من خطر انتشار فيروس كورونا (كوفيد-١٩)، حيث تحثّنا هذه الاستراتيجية على إعادة تشكيل أنماط تخالطنا الاجتماعي من خلال الحجر المنزلي والابتعاد عن ملامسة أي شخص لاحتمالية إصابته بالفيروس. يرى الدكتور نيكولاس لونج أن الحدّ من خطر الانتشار يمكن إنجازه بطرق مختلفة، نظرًا لارتفاع تكلفة الاستراتيجية الحالية، وصعوبة استمراريتها لمدة طويلة. من هنا، يدعو إلى إبداع استراتيجية جديدة تجعل من التخالط الاجتماعي ممكنًا؛ جنبًا إلى جنب مع احتواء الفيروس، ويُقدم فرضيةً وأمثلة إثنوغرافية على إمكانية تنفيذها، ويقترح تسمية «الاحتواء الاجتماعي» بدلًا من «التباعد الاجتماعي».

تهدف هذه الورقة إلى ثلاثة نقاط رئيسية:

١- فهم أسباب تكلفة إستراتيجية «التباعد الاجتماعي» العالية.

٢- مساءلة الأسس الفرضية التي يقوم عليها خطاب «التباعد الاجتماعي.»

٣- تقديم أمثلة إثنوغرافية وفرضيات لإعادة النظر في سبل التعايش البشري في عصر الكورونا.

تكلفة التباعد الاجتماعي

حاولت الحكومات تشجيع مواطنيها على استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، وقدّمت مجموعة من المبادرات التي تحفّز أفرادها على البقاء في بيوتهم، والاعتماد على التكنولوجيا الرقمية لملء فراغهم. فيما تتجاهل هذه المبادرات التوزيع غير المتساوِ لهذه الامتيازات التي تدخل في نطاق المفروغ منه لدى حزمة كبيرة من الناس، مما يزيد في تهميش هذه الشرائح، ويرفع من فرص تعرضها للخطر. أيضًا، تغض الاستراتيجية الطرف عن قطاعات وشرائح مجتمعية أخرى تعتمد في عملها على الاتصال البشري المباشر كدور المسنين وحضانات الأطفال، إذ يعتمد الطرف الأضعف جسديًا وعاطفيًا بشكلٍ كليّ في تلك القطاعات على الطرف الأكثر قدرة. أما على صعيد العلاقات الإنسانية التي تربط بين الناس، يشجع التباعد الاجتماعي على تقنين وترشيد العلاقات بين

الناس، والنظر لأي علاقة بنظرة حسابية معقلنة يقيم فيها الطرف الأول أساسية الطرف الآخر في حياته، ومدى خطورة التواصل معه.

إضافةً لما سبق، تُغفل المسائل التربوية لدى الوالدين العاملين، حيث يضطر الطرفان لتحمل عبء تربية أطفالهم، بالإضافة إلى عملهم عن بعد. فيما تغذي استراتيجيات التباعد خطابات ذات نزعات عنصريّة من قبيل الوطنية القبيحة الزائفة، والتعالي على الآخر بوصفه دخيلًا لا يحق له مشاركة المواطن في مزاياه، بالتالي يجب عزله إما بإقصائه في تجمعات حجر جماعيّة، أو إجلائه وطرده من البلد التي يقيم فيها. أما على الصعيد الأمني، تتعزز خطابات تشديد الرقابة الأمنية، وتفويض الدولة لاستخدام العنف كيفما تشاء، لعموم حالة الاستثناء، التي لا تغيب عن دول منطقتنا في ظروفها الطبيعية. تتكئ الاستراتيجية على مقولات من قبيل وجوب التحلّي بالصبر والتضحية من أجل مصلحة الجميع، مما يجعل الاستراتيجية تقف على أرضية أخلاقية ضعيفة في عصرٍ تتعالى فيه النزعات الفردية. كل ما سبق يجعل تحمّل والتزام الأفراد لفترات طويلة -قد تصل في بعض التقديرات لشهور عدّة حتى يصدر اللقاح- بأساليب استراتيجيات التباعد شديد الهشاشة ومُتاح للتمرد والكسر في أي وقت، مما يهدد بمخاطر تصدع وانفراط العقد الاجتماعي على المدى البعيد.

إشكاليات مفهومية في خطاب «التباعد الاجتماعي»

نشرت الواشنطن بوست مقالة في الرابع عشر من آذار (مارس)، المنحنى الأسّي المشهور الذي يوضح كيفية انتشار فيروس كوفيد-١٩، وغيرت من وجه تعاطي العالم معه. حيث قامت بعرض محاكاة لأربعة نماذج ممكنة تبين كيفية تنقُّل الفايروس في المجتمع الحاضن: التنقل الحرّ بدون قواعد، والحجر الصحي القسري، والتباعد الاجتماعي الجزئي، والتباعد الاجتماعي الكّلي. تُشَبِّه المحاكاة المجتمع بمجموعة من الكرات ذات اللون الأزرق تمثل الأصحاء، فيما يظهر بينها كرة ذات لون بني تمثل المصاب، وتتحرك الكرة بشكل عشوائي مصيبة شخصًا تلو الآخر، ينقل كل مصابٌ منهم العدوى لأشخاص آخرين، بينما مثلت المتعافين بكرات تتحول من البني إلى اللون البنفسجي.

(يمكنك الإطلاع على المقال باللغة العربية من خلال الرابط)

اعترف كاتب المقالة هاري ستيفنز بأن المحاكاة شديدة البساطة، وتختزل السلوك البشري، وأضاف وجوب اختفاء بعض الكرات تمثيلًا للموتى بعد الإصابة، لتكون المحاكاة أكثر واقعية. يُعقِّب الدكتور نيكولاس لونج على فكرة أساسية تبنى عليها مقال الواشنطن بوست، حيث يُصوّر «التباعد الاجتماعي» كسلوك فردي، على الرغم من كون انتشار المرض يمثّل إشكالية ترتبط أساسًا بشبكات الإنسان الاجتماعية. في نفس الوقت، يغدو التفاعل الاجتماعي مفهومًا قابلًا للتعميم والتكميم، فيكون مجرد مدخل في حياة الفرد يمكن تخفيض نسب حدوثه، أي أنه في أفضل أحواله متعة محرمة، وفي أسوأها مخاطرة بلا جدوى.

يحدد الدكتور لونج إشكالية التفاعل الاجتماعي في تردد ومجهولية نقاط التلامس والاتصال مع الأشخاص، مما يفاقم من مستوى سرعة انتشار سلاسل نقل العدوى. لذا يرى أن فهم هذه النقطة بشكل جيد ستسمح بمواجهة الفيروس بكفاءة، مما يمكننا من توجيه الوباء نحو نهاية مغلقة تَخْفِضُ من نسب انتقاله وانتشاره السريع.

من التباعد إلى الاحتواء الاجتماعي

يقترح لونج آلية تعامل مختلفة قليلًا في التعامل مع فيروس كوفيد-١، حيث يكون العزل المنزلي الكلي لكل أسرة بعد ظهور بعض الأعراض على أحد أفرادها لمدة ١٤ يوم خيارًا يقتضي تنسيقًا جماعيًا على مستوى سلوكنا الاجتماعي داخل شبكة تواصل كلٍّ منا. بذلك نتمكن من ضبط عملية انتقال الفيروس، ونقطع سلاسل انتشاره العشوائي. يسمي لونج هذه الآلية بـ«الاحتواء الاجتماعي»، بدلًا من «التباعد الاجتماعي»، على الرغم من التشابه الظاهر في الآلية لكنها تستبطن وترتكز على فعلٍ جماعي تكافلي لضمانِ جودة إنجازها.

بينما يرى خطاب «التباعد الاجتماعي» أن تواصلنا وتفاعلنا البشري يشكّل تهديدًا خطيرًا على كل أطراف

التواصل، فيُشجع على استراتيجيات انكفاء ذاتيّ اجتماعيّة جذريّة، ويرفع من مشاعر الوحدة والتفكك على المستوى الفردي. تمنحنا آلية الاحتواء خطابًا يجعل من تواصلنا البشريّ وعلاقتنا بالآخر وسيلة عمل جمعية للتلاعب بمسارات انتشار الفيروس، بما يسمح لنا الحفاظ على أشكال مختلفة نحتاجها من التواصل والتفاعل البشري لحياة تستحق العيش.

سيناريوهات الاحتواء الاجتماعي

تقوم فكرة الاحتواء على دمج العلاقات الاجتماعية -من أقارب وأصدقاء وغيرهم بغض النظر عن أهميتهم في نطاق علاقاتنا- في شبكة جماعية مضبوطة بعدد من المبادئ التي تضبط إيقاع حياتنا بما يمنع تمدد الفيروس. دعنا نفرض وجود عائلتين الأولى: (أ، ب، ج)، والثانية: (س، ص، ن) تعملان بشكل كلي من المنزل ويعيشون في منازل منفصلة، ثم يضرب الدكتور لونج أربعة سيناريوهات متخيلة تساعدنا على ابتكار استراتيجيات اجتماعية تتمتع بالمرونة، بما يسمح بتخطي صورة الاستراتيجيات الحتمية الصارمة التي يرسمها خطاب التباعد الاجتماعي:

١- تدعو العائلة الأولى العائلة الثانية للعشاء في مناسبات متفرقة على مدار أسبوعين **مع الوعي التام بخطر التجمع**، ينجح هذا الشكل من أشكال العزل فقط في حالة اقتصرتا العائلتين على هذه المناسبة. ويسمح هذا النمط من التواصل على توفير الحد الأدنى من الإشباع العاطفي والنفسي من خلال تقليل التواصل الخارجي والحفاظ على أهم العلاقات اللازمة. في حال توسعت إحدى العائلتين في مناسباتها مع الحفاظ على نوعية التواصل بالاقتصار على الاجتماع بأشخاص ملتزمين بالعزل المنزلي والعمل من البيت. يعطي هذا البعد مزايا متنوعة بحيث يحافظ على بقاء سقف الانتشار وشدّته منخفضًا، مقارنةً مع بقاء التواصل الاجتماعي كما هو في الفضاء العام، ويمنح أعضاء المجتمع غير القادرين على تحمل مصاعب الانعزال والوحدة الدفء اللازم.

٢- في هذا السيناريو يتخيل الدكتور وضعًا يكون فيه الاتصال بين العائلة الأولى والثانية على شكل مراحل متتالية، حيث تستضيف العائلة الأولى الفرد **(س)** من العائلة الثانية لمدة أسبوعين، أو أيًّا تكون مدّة حضانة الفيروس، ثم تستضيف الفرد **(ص)** وأخيرًا تستضيف **(ن)**. بهذا الشكل يمكن لأفراد العائلتين الاستمتاع بالبقاء مع بعضهما لفترة أطول من السيناريو الأول. في حال انتقال الفيروس من الفرد **س** إلى أفراد العائلة الأولى من غير ظهور أعراض عليهم، يعطي دلالة على صلابة أجهزتهم المناعية، ويمنع انتقال الفيروس إلى **(ص)**، وحتى لو انتقل فسيتم قطع سلسلة الانتقال، وحصاره بين أفراد العائلتين.

٣- السيناريو الثالث يمكن تخيّله كعقد مع فيروس الكورونا، حيث يأخذ في عين الاعتبار عدم قدرة كل أُسر المجتمع على استضافة أفراد إضافيين في منازلهم. يتمثل السيناريو في حصر تعامل أفراد العائلة الأولى على الفرد **(س)** من العائلة الثانية لمدة أسبوعين، ومن ثم بقية أفراد العائلة تباعًا فُرادى، ويختار الطرفان الاستمتاع بالمدة مع بعضهم، أو بالافتراق والاجتماع كلما احتاجوا لذلك. من هنا، تنحصر الشبكات الاجتماعية في دوائر مغلقة تمنع انتشار الفيروس، ولا شك أن التنقل بين المنازل عبر وسائل النقل العامة يزيد من نسب الإصابة به، لكن ذلك أيضًا يمكن ضبطه من خلال التعقيم المستمر، واختيار أوقات مناسبة للتنقل تنخفض فيها نسب الازدحام.

٤- السيناريو الرابع هو تخصيص للثالث، يفترض أن أفراد العائلتين تجمعهما صداقة حميمة، فتتفق العائلتان على التخالط الاجتماعي حصرًا بينهم كيفما شاؤوا لمدة أسبوعين، بشرط الالتزام بالعزل المنزلي في حال ظهور أي أعراض على أحد أفرادهم.

من الفرضية إلى الإثنوغرافيا

من المدهش انخفاض احتمالية الانتقال بشدة في السيناريوهات من ٢ إلى ٤، مما يشير إلى مركزية الجماعة في مقابل نزعة الفردانية. استلهم الدكتور لونج روح فرضياته الآنفة من تجارب مجموعة من الناس في مدينة لندن في التعامل مع الجائحة.

أحد الأشخاص الذين اعتمد عليهم لونج كان جاك الذي بدأ بالتعرف على أليكسا في مطلع العام ٢٠٢٠ الذي بدا في بداياته عامًا جميلًا، لكن انتشار فيروس الكورونا وضع جاك في مأزق الخوف من أمانه الوظيفي والعاطفي، حيث شاعت التحذيرات من الخروج إلى الفضاء العام، وسادت أجواء الحثّ على التزام المنازل. شعر جاك بالانزعاج والخوف من تطبيق إجراءات الحجر المنزلي، لاعتقاده أن علاقته بأليكسا لم تتوطد بعد، وأي افتراق في هذه المرحلة قد يؤدي إلى فتور العلاقة وانتهائها، في نفس الوقت تفاجأ جاك من ظهور أعراض السعال الشديد على شريكه في السكن ريتشارد.

تحدث جاك مع أليكسا واتفقا على أن يتنقل جاك بين مسكنه ومسكنها، لرعاية ريتشارد الذي ظهرت عليه أعراض الإصابة بالفيروس، على أن تلتزم أليكسا بعزل نفسها لمدة ١٤ يوم. أما التنقل بين المسكنين فقد كان جاك يمشي على الأقدام مع ارتداء الكمامات والحفاظ على روتين تعقيم ومسافة معتبرة من الاحتكاك مع أي شخص في طريقه. استطاع جاك ابتكار استراتيجية يحافظ فيها على علاقته مع ريتشارد الذي يحتاج إلى رعايته في فترة مرضه، وتطوير علاقته مع أليكسا بتغذيتها بحضوره المتقطع في هذه الظروف الاستثنائية.

على المستوى المحلي، تحدث العديد من الأشخاص عن حالات تشابه الوضعيات المقترحة في السيناريوهات آنفة الذكر. حيث توجد مجموعة من الأحياء الشعبية يلتزم فيها الأفراد في مبنى سكني باختلاط اجتماعي كامل داخل أسواره، فيما يبتعدون عن الاختلاط مع المجتمع الخارجي في وضع مبتكر يزاوج بين سيناريوهين أو أكثر مما ذكر أعلاه. تتزاور العائلات بين بعضها البعض، ويقيمون حفلات عشاء كاملة، وتشرب النساء فنجان قهوة الصباح كما اعتدن، لكن مع الحفاظ على عادات تعقيم مستمرة، وعدم مخالطة عائلات من خارج المبنى. مما يخفف من عبء الحجر المنزلي ومخاطره النفسية المتنوعة على الأفراد في هذه الحالة.

خلاصة

يخالف هذا السلوك المبتكر الجماعي استراتيجية التباعد الصارمة، مع حسّ واعٍ تجاه الآخرين. استطاعت مجموعة جاك وحسّه الاجتماعي المبدع، تطويع أساليب التباعد الاجتماعي والحجر الذاتي، في نمط رحب من التعاون يزاوج بين مسؤوليتهم في الفضاء العام، ومسؤوليتهم الشخصيّة اتجاه المقربين منهم.

يأتي دور الأنثروبولوجيا الطبية وباحثي الصحة العامة ليلعب دورًا هامًا في البناء والتطوير على تجارب الناس المبتكرة، بدلًا من الالتفات لنقاط ضعفها، والتأكيد على عدم كماليتها، والتقوقع خلف استراتيجيات التباعد الاجتماعي. من هنا، يكون تقديم النصح والتوجيه القائم على المعرفة العلميّة مُرَشِّدًا ومُشَذِّبًا وبانيًا على سلوكات المجتمع لا متعاليًا عليها.

رابط صفحة الكاتب :

http://www.lse.ac.uk/anthropology/people/nicholas-long

رابط الورقة الأصلي :

http://eprints.lse.ac.uk/103801